الموسيقى العربية بين الانفتاح والالتزام بالموروث

تجربة ذاتية

أ. هاني البدري (مصر)

على مر الأزمان وإلى وقتنا الحالى مازالت إشكالية الالتزام بما ورثه المرء وبين ما هوجديد ومستحدث قائمة وستظل ، ولا تنطبق هذة المشكلة على الموسيقى فقط ولكن تتوسع لتشمل كل علوم الدنيا وبخاصة العلوم الانسانية والفنون بوجه عام ، إلا أن علم الموسيقى يعتبر من أكثر العلوم التي تتأثر بهذه المشكلة وذلك نظراً لارتباطه بشكل وثيق بحياة كل فرد من أفراد المجتمع اثناء ممارسته حياته اليومية مما يجعل الفرد اكثر تمسكاً بما ورثه حتى لا يفقد ولو بشكل مجازي جذوره المتصلة بالمجتمع .

كما أن هناك الكثير من الأسباب التي تقف في وجه تطور وتحديث علوم الموسيقى منها على سبيل المثال العصبية للموروث عند شعوب العالم وبشكل أقوى وأوضح عند الشعوب العربية لما هومعروف عنها من تمسكها بتقاليدها، كما أن تمسك معلمين الموسيقى أنفسهم بما درسوه في الماضي وإصرارهم على تدريسه دون تغيير أو تعديل أو إضافة خوفاً من أن يصبح علمهم في طي النسيان في يومٍ من الأيام فيقل بذلك نفع هذا الأستاذ وجدواه في الساحة الموسيقية .

ورغم كل هذه الصعوبات والمعوقات أمام التحديث في الموسيقى إلا أن التغيير حادث لا محالة سواء تمسكنا بماضينا وموروثاتنا أم تخلينا عنها وأهملناها ، فالعالم بما يشهده من تطور وتسارع أصبح من الصعب جداً ان نقف في وجهه متحديين تطوراته وتغييراته ، فإن من الحكمة أن يواكب المرء التغيير بحكمة دون أن يهدم ماضيه وإرثه الموسيقي والثقافي.

ولذلك كانت هذه النقطة من أهم النقاط التي حاولت أن أراعيها خلال حياتي الفنية وهي بإختصار " التطور دون هدم الماضي "....

ولا يخفى على أحد أن التطوير والتحديث الذى لا يسبقه دراسة عميقة ومتأنية للتراث هو تطوير هش لا أساس له سرعان ما تظهر عيوبه ويهدم نفسه، لذا وجب على الموسيقي الدارس والعامل أن يتشبع بالتراث الموسيقي الخاص بحضارته من نظريات وقوالب وطرق عزف من خلال الإنضمام إلى الفرق التقليدية، وهونفس الأمر الذي قمت به في بداياتي في الموسيقى ، حينما قمت بالإنضمام إلى أكثر من ستة فرق للموسيقى العربية التقليدية أو التراثية ولمدة لم تقل عن سبع سنين عزفت خلالها أغلب الأعمال التراثية في الموسيقى العربية من أدوار وسماعيات وموشحات ولونجات وطقاطيق والتي ألفت في الغالب في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين .

وبالطبع لم تكن هذه الفترة الزمنية كافية للإلمام بكل تراث الموسيقى العربية إلا أنها كانت في رأيي فترة كافية لأخذ فكرة وافية عن الموسيقى العربية الآلية والغنائية، وعلى الرغم من ذلك لم تقتصر هذة الفترة على الموسيقى العربية فقط حيث انني كنت اطّلع وبكثافة على نوعيات أخرى من الموسيقات العالمية مثل الهندية والتركية واليابانية والبلغارية والكلاسيكية ، وقد كان لهذا التنوع في دراسة الثقافات الموسيقية الأثر الكبير في الوصول إلى حلقة من الوسطية بين موسيقات العالم المختلفة ، وقد صار هذا الأمر متاحاً مؤخراً بسهولة أكبر وتكلفة أقل بكثير بعد التطور الكبير في وسائل الإتصال والمشاركة التي أتاحها توفر الأنترنت في السنوات العشرين الماضية.

ورغم هذا التطور في وسائل الإتصال إلا أن الأمر ما زال من الصعوبة إلى حد ما خصوصاً حينما يتطلب الأمر ضرورة الممارسة العملية وتجربة عزف الموسيقات المختلفة للشعوب، اذ يتطلب الأمر سيولة مادية حتى يستطيع الدارس السفر إلى مختلف بقاع الأرض ، فإن لم تساهم الدولة في هذا الأمر صار صعباً لتحقيقه، وقد يستطيع الدارس تخطي إلى حد ما هذه العقبة من خلال الإستماع إلى هذه الموسيقى عن طريق بعض المواقع الالكترونية المتخصصة مثل اليوتيوب والساوندكلاود غيرها.

ولا أنكر أن مشكلة الإنتقال والسفر قد واجهتني في صغري اذ أن السفر في ذلك الوقت كان خارج حدود إمكانياتي المادية ، ولكن وجودي في القاهرة – عاصمة الفن- سهل الكثير في هذا الامر ، فقد كان لوجود الفرق الوسيقية على مختلف اتجاهاتها وتنوعها الأثر البالغ في تسهيل ممارسة الموسيقات المختلفة دون الحاجة إلى السفر ، ونظراً لوجود الكثير من الاوركسترات

الكلاسيكية في القاهرة فقد كان لذلك اكبر الاثر في سهولة المزج بين موسيقانا العربية والموسيقى الكلاسيكية.

وكما هومعروف ان الموسيقى الكلاسيكية من اكثر الموسيقات المقننة والمهيكلة في العالم، حتى أنها تعزف في مختلف دول العالم بنفس القواعد والقوالب وتقنيات العزف وعلى الجانب الآخر نعلم جميعاً أن الموسيقى العربية هي من ضمن الموسيقات التي تم تناقلها بالتلقين والشفهية حيث لم تبذل مجهودات لتدوينها إلا في اواسط القرن العشرين وهو الامر الذي جعلها تتميز بالعفوية والتأثير الكبير للمطرب والعازف في خط طرق سيرها.

ونظراً لأني مارست الموسيقى العربية لفترة جيدة ومارست أيضاً الموسيقى الكلاسيكية من خلال عزفي مع كثير من الاوركسترات داخل وخارج مصر لكثير من الوقت ، فقد دفعتني هذة التجربة إلى الرغبة في المزج بين روحي وتكويني الشرقي وخبرتي وثقافتي الغربية ، وتجلى هذا الأمر في نتائج ملموسة على المسرح وأمام الجمهور وليس فقط في أبحاث وتقارير ، فإني ارى أن الموسيقى إذا لم تترجم بشكل ملموس من خلال المسرح أوالسينما أوحتى التلفاز فإنها تصبح علماً لا نفع له وسوف يدفن مع الموسيقي في نهاية الامر.

وعلى جانب آخر استمعت كثيراً للموسيقى الغربية المعاصرة بشتى أنواعها مثل الجاز والبلوز والكانتري من مختلف ثقافات العالم ، فهناك الكثير ممن قاموا بالمزج بين ثقافاتهم الموسيقية من هندية وأفريقية ولاتينية مع الموسيقى الكلاسيكية وكانت النتائج مبهرة ، وكانت بداية التطبيق العملي لهذا المزج من خلال فرقة تكونت في سنة ٢٠٠١ في القاهرة هي فرقة (افتكاسات) وقد كنت من مؤسسي هذه الفرقة التي كانت فكرتها الأساسية تقوم على المزج بين موسيقى الجاز والموسيقى اللاتينية مع الموسيقى العربية ، وأذكر حينها اننا قمنا بالكثير من اللقاءات والتدريبات قبل البدء في أول حفلة معلنة ولا سيما أن كل مؤلفات الفرقة كانت أصلية ولم نعزف من مؤلفات الغير وكانت الفرقة في البداية مكونة من أربع آلات هي البيانووالباص جيتار والدرامز والناي، ومن الملاحظ في هذا التكوين غلبة العنصر الغربي على الشرقي المتمثل في الناي فقط، فكان من المنطقي ان يميل اتجاه الموسيقى إلى الناحية الغربية اكثر من الناحية الشرقية، ولكن هذا لم يحدث على الاطلاق ، فقد قام كل اعضاء الفرقة في محاولة وسطنة الموسيقى حتى لا تميل كل الميل لطرف على حساب الآخر ، وهوالامر الذي نال إستحسان المستمعين على مختلف توجهاتهم.

تبع ذلك التركيز على العزف مع أوركسترات الموسيقى الكلاسيكية ، والذي واجهني فيه مشاكل من نوعية أخرى غير التى واجهتني من قبل كان من أهمها ان الدوزان الذي تتبناه الاوركسترا الكلاسيكي يعلوالدوزان الشرقي بحوالي ٢ سنت ، وهوامر قدلا يمثل مشكلة مع آلات التخت العربي الذي يمكن ضبط دوزانها مثل العود والقانون وبالطبع الكمان ، إلا أن الموضوع يختلف في الناي حيث أن تغيير الدوزان يعتمد كلياً على العازف نفسه وذلك عن طريق زيادة النفس وتغيير وضعية الناي على الفم ، كما كانت هناك مشكلات اخرى أقل صعوبة مثل بعض الإختلافات البسيطة في طريقة كتابة النوتة الموسيقية وبعض الإختلافات أيضاً في إشارات القيادة التي يقوم بها المايسترو بالإضافة لبعض الأمور النفسية الاخرى والتي لا مجال لذكرها هنا .

وأعترف أنه من خلال تجربتي هذه في محاولة المزج بين موسيقانا وموسيقى الشعوب الأخرى أنني لاحظت أن فكرة المزج لا تقوم فقط على عزف موسيقى الغير دون أخطاء ولكن الأمر يتعدى ذلك إلى الحاجة إلى تثقيف نفسك تاريخياً وموسيقياً بثقافة وتاريخ تلك الموسيقى المراد مزجها مما يتيح لك معايشة روحها والتقرب من تفاصيلها وأيضاً معرفة ما يمكن إضافته من حليات وزخارف لا تكتب عادة في النوتة الموسيقية ، وهي أمور لا يتم معرفتها إلا من خلال الإستماع بشكل يكون الهدف منه التعلم وزيادة الخبرة وليس فقط الإستمتاع.

وكل هذا يؤكد أن كل ما سبق لا يمكن اكتسابه وتنفيذه إلا في حالة واحدة وهي أن يتحلى الموسيقيون ومن هم مسئولين عن تعليمهم بقدر كبير من التصالح مع النفس والتقبل لكل ما هوجديد ومبتكر ، حيث أنه دون روح التقبل هذه يبنى بين العازف وبين ما يمكن ان يكتسبه من مستحدثات على الموسيقى جدار منيع يزداد سماكه مع الأيام إلى أن تصبح فكرة إختراقه امر صعب، لذا وجب على مدرسي الموسيقى أن يزرعوا فكرة تقبل التغيير من الصغر فتصبح فكرة تقبل التغيير موجودة طوال العمر ، وبالطبع فأنا اقصد بالتقبل هوعدم الإعتراض فقط ولا اقصد بالطبع الموافقة على التنفيذ وتغيير الفكر لكل ما هوجديد.

وكما أن تنمية الثقافة الموسيقية تزيد - بالطبع- من قدرات العازف التكنيكية، فإن تنمية الثقافة العامة في شتى مجالات العلوم الانسانية والرياضية البحتة يزيد ايضاً وبشكل كبير من قدرات الموسيقى الإبداعية ، فقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً

للشك أن كل العلوم البشرية اياً كان تخصصها وتوجهها مرتبطة ببعضها البعض بشكل اوبآخر حتى وإن كانت هذه الصلة بعيدة عن تخيل البعض.

التوصيات:

- بما انه لا يمكن التطوير والتحديث دون تقوية التراث ، فإني اشدد على ضرورة تعليم أساسيات الموسيقى العربية في المدارس كما يحدث مع الموسيقى العالمية أيضاً .

- زرع قابلية التغيير وقبول الجديد في فكر طلاب العلم حتى تصبح الفكرة قائمة .

- زيادة التنوع في دراسة موسيقى الشعوب الاخري بخلاف الموسيقى الكلاسيكية ومحاولة ايجاد المشترك بينها وبين الموسيقى العربية لتسهيل المزج بينها.

- تحفيز الطلاب على زيادة ثقافاتهم العامة في مختلف العلوم وليس فقط العلوم المفروضة في المنهج الدراسي ولفت انتباههم لما في ذلك من منفعة على تخصصهم في المستقبل.
- تسليط الضوء على المجددين في تاريخ الموسيقى ودورهم المهم في تطويرها وتحفيز الدارسين لسلك مسلكهم.

وفي الختام اود القول أن الموسيقى كعلم لا يختلف عن أي علم آخر من حيث أهميته و قوة بنائه وإن اختلف هدفه النهائي الذي أري انه إيصال المتعة والسرور لمستقبلِه حتى يتسنى له مواجهة صعوبات وأعباء حياته ، وهوهدف في الحقيقة لا يقل أهميةً ونبلاً عن باقي العلوم الحياتية.

وفقنا الله لخير البشرية وتطورها.